الباب السادس

فلسطين خلال عصر البرونز المتوسط

٢١٠٠-١٦٠٠ ق.م

تشير الحفائر الأثرية إلى أن أهل فلسطين خلال عصر البرونز المتوسط كانوا يقيمون داخل مدن محصنة، بأسوار عالية سميكة، ومزودة بشرفات وأبراج مراقبة، ومنحدرات مائلة بجوار الأسوار، وفي بعض المدن كان يحفر خندق حول الأسوار يملأ ماء لحماية المدينة، وكانت بعض المدن محاطة بسورين أو ثلاثة أسوار متتالية، لأن المدينة لها ملك، وبذلك فإن كلمة "مملكة" في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، خلال فترات عصر البرونز والحديد، تعني مدينة أو مدينتين، وما حولهما من أراضي زراعية، لأن كل مدينة كما سبق أن ذكرت عند كلامي عن عصر البرونز المبكر، كانت ملك قبيلة، ورئيس القبيلة هو الحاكم، ويلقب أحياناً بالأمير ولكن اللقب الغالب هو "الملك".

وكانت كل مدينة أو مملكة مستقلة بذاتها، الحاكم وجنده يعيشون داخل أسوار المدينة، وكان لطبقة الملاك والتجار قصور خاصة. وبقية الشعب يزرعون الأرض، ويقومون بالصناعات التطبيقية وغيرها. وإذا قامت حرب أو حدث هجوم على مدينة، فإن المزارعين والتجار وغيرهم يلجؤون إلى أسوار المدينة المحصنة،

وكثيراً ما كانت تنشب حروب بين المدن أو بين هذه الممالك الصغيرة، ولذلك حرصت كل مدينة على حماية نفسها وأفراد قبيلتها. وقد حال هذا دون قيام وحدة بين ممالك فلسطين وسوريا ولبنان والأردن. بعكس مصر التي كانت تعيش تحت أمرة حاكم واحد، إذ ساعد هذا على قيام امبراطورية ضاربة وقوية متقدمة في جميع العلوم والفنون القديمة، وجعلها مرهوبة الجانب في وجه المغيرين، وكذلك الحال في أرض الرافدين، حيث قامت امبراطورية قوية.

(وتظهر فسيفساء، ترجع إلى امبراطورية حمورابي البابلية (٢٠٠٣-١٩٥٠ق.م) أمراء محليين كانوا يتقاسمون بلاد كنعان "فلسطين وآمور، أو سوريا" وكان أهم أولئك الملوك الكنعانيين أو الفلسطينيين ملك "يبوس" أو "أورشيليمو". وكانت تمتد مملكته حتى الكرمل، وهكذا تبدو أورشيليمو، مدينة ملك السلام، معروفة منذ العهد البابلي، وفي جنوب فلسطين في النقب تفيد حفائر "نلسون جلويك" أن النقب كان عامراً بالسكان خلال عصر البرونز المتوسط حيث عثر على "قرى كثيرة صغيرة من الحجر تسكنها أقوام نصف بدوية، منتشرة في كل المنطقة القاحلة التي تقع جنوبي بئر سبع). (١)

ويبدو لي أنهم من قبائل المدينيين الذين انتشروا حول برزخ السويس وبجنوب فلسطين وهم الذين أنقذوا "سنوحي"، ومدوا له يد العون وساعدوه في إتمام رحلته عبر فلسطين ثم لبنان، واستقراره أخيراً في سهل البقاع بسوريا.

كما أن اسمي ملكي المدينة، ملكيصادق وأدوناي-صادق (نحو ٢٠٠٠ ق.م) هما من أسماء العلم المعروفة في ذلك العهد(٢). ويجب أن يعرف أن اسم القدس الكنعاني هو "أورشليم أو أورشالم" وقد ظهرت هذه المدينة خلال العصر الحجري

النحاسي، ودلت حفائر ايبله بسوريا، على أنها إحدى المدن الكنعانية المعروفة منذ ٢٥٠٠ ق.م واسمها مشتق من اسم الإله الكنعاني "شالم". أي أن اسمها "أورشالم أو أورشليم".

وتشير الحفائر التي قامت في فلسطين إلى أن هناك وافدين جدداً من سوريا الشمالية، ينتمون إلى سكان فلسطين الذين استقروا قبلهم بآلاف السنين، ويبدو أن الوافدين الجدد، هم عموريون من القبائل المتجولة التي لم تستقر بعد، وهؤلاء وصلوا إلى دلتا النيل.

ويعتقد بعض الباحثين أن الدافع لذلك اقتصادي، وربما كان لحصول جدب في منطقة الشرق الأدنى بأسره. وقد أشار إلى ذلك مستشهداً بتسجيل "الملك أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة في الطريق الجنزي الخاص بهرمه، لأحداث مجاعة شديدة في مصر"(٣).

وعهده قريب من توقيت هذه الهجرات، بل وتشير الحفائر إلى أنه "في نحو ٢١٥٠ سنة ق.م، غزا الأموريون فنيقيا وفلسطين، حيث عم الخراب والحرائق معظم المدن"(٤).

وتشير الحفائر أيضاً أن العموريين وصلوا من شمال سوريا مع بداية عصر البرونز المتوسط، وساندوا الأكاديين ابناء جنسهم فسيطروا على السومريين، وأخضعوهم لسلطانهم، وذلك نحو ٢٢٣٧ ق.م وقد برز منهم ملك لمدينة عرفت باسم بابل، واسمه "سوموابم" ولكن سرعان ما أصبح قوياً فعين نفسه ملكاً وذلك في

نحو ٢١٠٥ ق.م. وهو يعتبر مؤسس مملكة بابل الأولى، التي كانت عاصمتها مدينة بابل. ولكن هذه المملكة قويت وأصبحت بعد ذلك بقرن، عاصمة أول امبراطورية عربية عظيمة في أرض الرافدين وذلك على يد حمورابي (٢٠٠٣-١٩٦١ ق.م.).

كانت بابل المدينة الأولى والأجمل بين مدن غربي آسية، ويبدو أن هناك هجرة عمورية أخرى خرجت فعلاً من سوريا الشمالية، في اتجاه آخر وذلك في فترات متقطعة بين ٢٣٠٠ و٢١٥٠ وحتى ٢٠٠٠ ق.م، وقد غزت فلسطين، وظهر ذلك واضحاً في حضارة أريحا ولاكيش وتل بيت مرسيم ومجدو وبيت شان، كما غزت الساحل السوري، ويشير إلى ذلك تدمير مدن عصر البرونز المبكر الرابع بفلسطين، كما يظهر أيضاً على ساحل فلسطين، وعلى الساحل السوري في جبيل وأوغاريت وصور وصيدا. ولكن هؤلاء سرعان ما ذابوا في إخوانهم من العموريين والكنعانيين الذين سبقوهم إلى الاستقرار والتطور والسكن داخل المدن المحصنة وترك مرحلة البداوة.

ولذلك نرى سكان فلسطين خلال هذه الفترة، على رغم أنهم عموريون وكنعانيون فإن هجرتهم أو تنقلاتهم المتتالية جعلت أسبقهم أكثر استقراراً وتطوراً. ولهذا كان هناك سكان مدن محصنة مثل أريحا وشكيم ومجدو وبيت شان ويبوس أورشالم وعسقلان وبافي وشاروهين وبيت شمس وهازور، وتل بيت مرسيم وعاي وتل الجزر وبئر السبع، وغيرها. كما كان على جانبي نهر الأردن قبائل بدوية، ونصف بدوية وذلك في أواخر القرن العشرين قبل الميلاد، وحتى بعد ذلك بقي شرقي النهر مأهولاً بالسكان، ولكنهم ظلوا بدواً رحلاً، كما تشير إلى ذلك نصوص اللغات المصرية من الأسرة الثانية عشرة.

ويفهم من النصوص المصرية أن فلسطين ابتداء من بداية هذا العصر أصبحت علاقتها أوثق بما يجاورها منها في عصر البرونز المبكر، وخاصة خلال الفترة الممتدة منذ أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ولكن بعد نحو عام ١٧٥٠ ق.م، وبعد سقوط الأسرة الثانية عشرة المصرية، لم تستطع مصر بسط نفوذها من جديد إلا على "جبيل".

بدأ نفوذ الهكسوس العسكري بالظهور وذلك قبل نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد بوقت قصير، واستمر نفوذهم هذا حتى قبيل عصر البرونز المتأخر في مصر، وبقي في بلاد كنعان قوياً حتى خلال القرن الأول من عصر البرونز المتأخر. وقد اختلفت الآراء حول هوية ذلك الشعب الذي يسمى بالهكسوس، والذي امتاز بقوته العسكرية وميله للحرب واستخدام المركبة الحربية التي تجرها الجياد، ولكن اتضح لي من خلال بحثي أنهم عرب من الكنعانيين والعموريين "سكان سوريا ولبنان وفلسطين والأردن".

ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال الآتي:

١-المؤرخ المصري مانيثيو. هو أول من استخدم اسم الهكسوس أو لفظة الهكسوس وهذا المؤرخ ظهر متأخراً إذ كتب باليونانية وفسر اسم الهكسوس على أنه يعني "الملوك الرعاة" ويصفهم في بعض النصوص فيقول:

"نزلت علينا لفحة من غضب الله. فقد تجرأ شعب وضيع الأصل من الشرق لم يتنبأ أحد بإقدامه على غزو بلادنا فسيطروا عليها بالقوة، ودون صعوبة حتى ولا

معركة، وبعد أن تغلبوا على حكامنا فإنهم أحرقوا المدن بوحشية، وخربوا هياكل الآلهة وعاملوا السكان كلهم بمنتهى القسوة". (٥)

وأصل كلمة هكسوس التي استخدمها المؤرخ مانيثيو مصرية، وهي كلمة ذات مقطعين الأول "حقاو" ويعني حكام، والمقطع الثاني "خاسوت" ويعني البلاد الأجنبية أو الملوك الرعاة. وكان لقب (حقاو خاسوت) يطلق على ملوك الهكسوس كما كان يطلق قديماً على الكنعانيين الذين كانوا يذهبون إلى مصر قبل سيطرة الهكسوس على مصر. ونستطيع أن نتبين ذلك من الرسومات والكتابات الجدارية التي سجلها قدماء المصريين على مقابرهم عند زيارة أي شعب لهم.

والجماعة الكنعانية من الجماعات التي قدمت من جنوب بلاد كنعان "فلسطين" إلى مصر، وذلك بحسب جميع كتب الباحثين. ونحن نعرف أيضاً أن زعيم هذه الجماعة كان من الكنعانيين كما تشير إلى ذلك جميع كتب الباحثين، وأن جماعته وكان عددهم ٣٧ شخصاً من رجال وأطفال ونساء، وكان اسمه أبشاي ويلقب "حقاوخاسوت" أي حاكم البلاد الأجنبية. وهذا اللقب هو الذي أصبح بعد تحريفه اسماً يدل على الهكسوس.

٢-إن اسم "حقاوخاسوت" الهكسوس أطلق فقط على الناس الذين يلبسون ملابس مطرزة. وهذا ما تثبته رسومات المصريين القدماء حيث رسموا الكنعانيين والعموريين وأطلقوا على رئيسهم "حقاوخاسوت"، وهو يلبس ملابس مطرزة. والمعروف أن الكنعانيين خاصة كانوا يلبسون ملابس مطرزة، النساء منهم والرجال والأطفال والشيوخ، وهي مميزة للعرب الكنعانيين، وهذا يعني أن الهكسوس عرب كنعانيون من سكان سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

٣-قد ورد على لسان مؤرخ العلم "جورج سارتون" مأخوذاً عن المؤرخ، المصري مانيثيو ومجملاً رأيه ما يفيد بأن الفينيقيين أنفسهم من الهكسوس، حيث يقول "تكلم أولئك الفينيقيون لغة أقرب إلى اللغة العبرية(٦) منها إلى أي لغة أخرى من مجموعة اللغات السامية. ويجوز أن يكون الهكسوس، مع ما في أمرهم من غموض، وهم الذين غزوا مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد، هم الفينيقيين أنفسهم من غير لبس حين قام أحمس الأول فرعون مصر (وهو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ١٥٨٠-١٥٥٧)، بغزو بلادهم. ومن ذلك الحين صار الفينيقيون خاضعين للحكم المصري، لكن ذلك لم يدم طويلاً. وكثيراً ما يرد ذكرهم في النقوش المكتوبة بالخط المسماري في تل العمارنة، وحاول بعضهم أن يطرح نير الحكم المصري، وتآمروا مع الحثيين الذين شجعت قوتهم المتزايدة، وصداقتهم الظاهرة آمال الهكسوس في تحرير أنفسهم"(٧). ويقصد جورج سارتون بالهكسوس سكان مدن لبنان وسوريا وفلسطين والأردن.

٤-يشير الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: إلى أن الهكسوس استقروا في مصر السفلى وخاصة في الدلتا، إذ جعلوا عاصمتهم أفاريس بالقرب من موطنهم الأصلي، حيث يقول "تدل ظواهر الأحوال على أن منطقة الشرق الأدنى القديم تعرضت لأحداث كثيرة متتالية في الوقت الذي أشرفت فيه الدولة الوسطى على النهاية، فقد قضت بابل على الممالك المجاورة لها، بينما أخذ "الحوريون" أو "الميتانيون" يستولون على بعض البلاد السورية- ولا شك في أن هذه التحركات كانت ذات أثر في هجرة وتسلل الكثير من العناصر الآسيوية إلى شرق الدلتا على الأرجح- ولم يمض على استقرارهم وقت طويل حتى أصبحوا قوة يخشاها المصريون، واستفحل خطرهم وزاد إلى أن تمكنوا من فرض سلطانهم على مصر وجعلوا عاصمتهم أواريس"(٨).

٥-نحن نعرف أن أي فاتح عظيم عندما يفتح بلاداً جديدة غير بلاده، ويستقر فيها محتلاً فترة من الزمن قد تقصر أو تطول، فإن أهل البلاد يظلون على كراهيته، إلى أن تؤاتيهم فرصة طرده فإنهم يطردونه إلى البلاد التي منها وفَد، بل وتدفعهم الحمية إلى ملاحقته حتى عقر داره واحتلاله كما احتلهم، والتاريخ القديم والحديث حافلان بالأمثلة العديدة على ذلك. فالهكسوس عندما استقروا في الدلتا ومصر الوسطى، وجعلوا عاصمتهم أفاريس أو أواريس نجد أن المصريين لم يقبلوا هذا الوجود، فبدأت مقاومتهم أولاً على يد والد أحموس الأول، ثم على يد أخيه، ويدعى "كاموذا" ثم على يد أحموس الأول الذي تمكن من إحراز النصر لمصر، وطردهم خارج البلاد، إلى أول حصونهم العتيدة القوية بفلسطين وهو حصن "شاروهين" أي تل الفرعة في الطرف الجنوبي لفلسطين بالقرب من بئر سبع. وقد حاصرهم فيها ثلاث سنوات إلى أن سقطت على يده، وهناك رأي بأن حصار شاروهين دام ست سنوات ويلاحظ بعد سقوط شاروهين أنه لم يتركها أهلها. كذلك حصونهم في "مجدو" تل المتسلم حالياً، والتي حاصرها تحتمس الثالث بعد ذلك لفترة من الزمن، لم يتركها أهلها، وكذلك الحال في أريحا وهازور وتل العجول وشكيم وحتى حصونهم في الشمال في سهل البقاع بسوريا، بعد أن هزمها جيش مصر، لم يتركها أهلها. بل بقوا في فلسطين وسوريا ولبنان والأردن، وكل ما حصل لهم أنهم فقدوا قوتهم العسكرية ونفوذهم السياسي، وكل النصوص المصرية وخصوصاً المتعلقة بفتوحات "تحتمس الثالث" توضح أنهم لم يتركوا سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. بل تشير إلى الغنائم والنصر فقط وهذا يفيد بأنهم عموريون وكنعانيون من سكان "فلسطين وسوريا ولبنان والأردن".

٦-يشير الباحث الكبير الدكتور أنور الرفاعي إلى أصل الهكسوس العربي، حيث يقول "ان أصل هذه الأقوام التي حكمت مصر مدة طويلة من الزمن والتي

أسست الأسرتين الحاكمتين ١٥، ١٦ هي من القبائل العربية القادمة عبر سيناء. حين أخرج أمراء طيبة الهكسوس من مصر، أخرجوهم إلى البلاد التي قدموا منها وهي سيناء، ثم لاحقوهم حتى فلسطين... وكان ذلك قد شجع ملوك مصر على احتلال الشام ومحاولة ضمها إلى الامبراطورية المصرية. وذكرت النقوش المصرية وخاصة الباقية إلى اليوم، على جدران الكرنك ومعابد الأقصر الكثير من أخبار حملات مصر ضد قبائل البدو المقيمة في فلسطين وسورية"(٩).

٧-عندما حكم الهكسوس في مصر جعلوا بعلاً معادلاً للإله المصري "ست" كما جعلوا "البعلة" معادلة للإلهة المصرية "ايزيس" وأدخلوا بين سائر الآلهة في مصر أخت بعل ورفيقته "عناة"، كذلك حكمت من الهكسوس سلسلة من الملوك السوريين هناك قبل السلالة الخامسة عشرة، وكانت أسماؤهم كنعانية أو أمورية واضحة، منها "هنات هار" وكذلك أسماء قوادهم وأمرائهم التي أبقوها لنا محفورة على التعاويذ والتمائم المصرية وهي بشكل الخنافس وكانت ترمز للخلود عند المصريين القدماء، كانت أسماء كنعانية أو أمورية(١٠).

٨-قد ورد في المجلد الثامن-لمجلة المعرفة ما يفيد، بأن العرب البائدة "اصطلح على تسميتهم بالعمالقة. وقسموهم إلى قسمين كبيرين هما:

أولاً-عمالقة العراق، وهم دولة حمورابي في بابل والأدلة على أن دولة حمورابي عربية كثيرة ومتعددة منها أسماء ملوكهم ولغتهم.

ثانياً-عمالقة مصر، وهم الذين يسميهم المؤرخون (الهكسوس) وهناك بقايا

العمالقة ومنها عاد وثمود، وكان مقامهم بمدائن صالح، وطسم، وجديس وغيرهم، هذا بالإضافة إلى دولة الأنباط في بطرا، ودولة التدمريين في تدمر.

وخلاصة ما يستنبط من النقاط السابقة الذكر:

أن الهكسوس هم كنعانيون وعموريون من سكان سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وقد وصلوا إلى مصر على فترات متقطعة، وكان بينهم عدد من الحثيين والحوريين وهؤلاء استخدمهم الهكسوس في سياسة الخيول وخدمتها. وقد وصل الهكسوس إلى مصر على فترات متقطعة ولكنهم حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن من الزمن (١٧٣٠-١٥٨٠ق.م).

والواقع أن الفترة التي يطلق عليها الباحثون فترة الهكسوس هذه الفترة التي يغفلها الباحثون هي في الحقيقة كسب حققته القبائل العمورية والكنعانية من سكان سورية ولبنان وفلسطين والأردن، هذا الكسب تمثل في وحدتهم أول مرة، فكونوا قوة ضاربة عسكرية ظهرت لفترة قرن ونصف قرن من الزمن، وقد أثرت هذه الفترة على جميع أوجه الحياة في فلسطين فعم البلاد رخاء اقتصادي وتجاري.

وهكذا يتضح لنا من العرض السابق أن فلسطين عربية كنعانية، وأن الهكسوس هم سكان فلسطين وسوريا ولبنان والأردن وهم عرب كنعانيون "وفي هذا رد علمي على دعاوى الصهاينة، ومناحم بيغن بأن العبرانيين من الهكسوس".

ففلسطين عربية كنعانية والهكسوس عرب كنعانيون انحدرنا منهم وحملنا

صفاتهم وعبادتهم وأزياءهم وتقاليدهم حتى الآن في سورية ولبنان والأردن.

أهم المراجع:

(١) –د. وليم ف. أولبرت، مترجم، ص ٨٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) –د. جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٠٣–١٠٤، مؤسسة بدران وشركاه للطباعة والنشر، بيروت.

(٣) –د. رشيد الفاخوري، جنوب غربي آسيا الشمالية وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، ص ٣٣١.

(٤) –د. فيليب حتي، سوريا ولبنان وفلسطين، مترجم، ص ١٥٧، ١٥٩.

د. محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ١٣٨، ١٤٧.

(٥) –د. جواد بولس، لبنان والبلدان المجاورة، ص ٧١.

(٦) –د: العبرية: هي لسان كنعان كما ورد في أسفار اليهود، أي أنها ليست

لغتهم ولكنهم تعلموها من الكنعانيين، وبهذا فالعبرية هي لغتنا وقد أخذها اليهود عن أجدادنا الكنعانيين.

(٧) –د. جورج سارتون، تاريخ العلم، الكتاب الأول، مترجم، دار المعارف بمصر، ص ٢٣٩.

(٨) –د. محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ١٤٧–١٤٨.

(٩) –د. أنور الرفاعي، قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير، ص ٦١.

(١٠) –د. فيليب حتي، تاريخ لبنان، مترجم، ص ٩١–٩٢.

(١١) –المجلد الثامن، مجلة المعرفة، ص ١٥٦٩، ١٥٧٠، النشر شركة ترادكسيم، شركة مساهمة "سويسرية" ١٩٧١م.